فنون النَّـثر العربي في الجاهليّة

القَصصُ وسَجْع الكُهَّـــان:

يؤخذ مصطلح القصّة والقَصص والقِصص من المعنى اللغويّ ل
ي يَقُصُّ، بمعنى: "قَصّ آثَارَهم يقُصّها قصًّا، وقَصَصًا، وتقَصّ
ـهَا بِاللَّيْلِ. وَقيلَ: هُوَ تَتَبُّع الْأَثَر أَيَّ وَقت كَانَ".

الرّابط بين المعنَيَيْنِ هو أنّ: من يقُصّ قصّة فكأنّه يتقصّى أخبا
ـصُّ خبرَهُم وأحوالَهُم وشؤونَهُم، ويتتبّع آثارهم، وكذلك كان للع
الجاهليّـة مجـالسُ للسَّـمر، تُسـاقُ فيهـا أحاديـث قـوم سـ
تقصى فيها أخبارهم و أحوالهم، والحوادث التي عاشوها،
نها رواية العرب أيّامَهم ومعَاركَهُم التي خاضتها القبائل هنا أو ه

ل قَصَصَ العرب في الجاهليّة:

اشتهرت على ألسنة العرب قصص وأخبار كانوا يتسامرون بها
ـالس سـمرهم اللّيليّـة حـول خيـامهم، ولعـل أشـهرَها قصـة الزّ
ـمها نائلـــة بنت عَمْرو بنِ الظَّرِب، صاحبة (تَدْمُر)، وملكة الش
بَت الروم وطردتهم، توفيت سنة ٣٥٨ ق.هـ.

موذج مُقتَطَف من القصّة(كما رواها الطبري في تاريخه):

" كـان جُذَيْمَـةُ الأَبْـرَشُ مـن أفضـل ملـوك العـرب رأيـا، وأول
جمع له الملك بأرض العراق، وضـم إليه العرب، وغزا بالجيو
ـت منازله فيما بين الحيرة والأنبار...

وكان مَلِكَ العرب بأرض الجزيرة ومشارف بلاد الشام عمرو
ـرِب والدُ الزّبّاء.

ع جذيمة جموعا من العرب، فسار إليه عمرو بن ظرب بجموعه من
ا قتالا شديدا، فقُتل عمرو بن ظرب، وانفضَّت جموعه،... فقال في
بن عمرو بن فهم الأزدي: [من البسيط]
نَّ عَمْرَو بنَ ثربَى [ظَرْبٍ] لم يعِش مَلِكًا *** ولم تكن حَوْلَهُ الرَّايَات تَخْنَ
لاقــى جُذَيْمَةَ في جَــأواءَ مُشْعَلَةٍ *** فيها حَــرَاشف بالنِّيرَان تَرْتَشِقُ
ت من بعد عمرو ابنتُه الزَّبَّـــــاء.
ت للزباء أخت يقال لها زبيبة، فبنت لها قصرا حصينا على شاطئ ا
، وكانت تَشْتُو عْنْد أختها، وتَرْبَعُ بِبَطْنِ النِّجَار، وتصير إلى تَدْمُر، ف
ع لها أمرها، واستحكم لها ملكها، أجمعت لغزو جذيمة الأبرش تطل
فقالت لها أختها زبيبة- وكانت ذات رأي ودهاء وأرب: يا زبَّاء، إن
جذيمة فإنما هو يوم له ما بعده، إن ظفرت أصبت ثأرك، وإن قُتِلْتِ
، والحرب سجال، وعثراتها لا تستقال... فانصرفت عما كانت أج
ن غزو جذيمة...

ومختصر ما تبقّى من القصّة أن الزّبّاء تلجأ إلى استدراج جُذ
د نسائي، فتكتب إليه تدعوه إلى الزواج منها، وإلى أن يأتيَ فيـ
كها إلى ملكه لعجزها عن ضبط شؤون مملكتها.

فيستشير جذيمة أهل الرّأي فيُزَيِّنُون له ذلك، إلا رجلا يد
ير بن سعد بن عمر أشار بأن الأمر خدعة، فيعصيه جذيمة وي
اءَ في قصرها فتقتله بعد أن تسقيه خمرا، وتحتفظُ بدمه.

ويتولى مُلكَ العراق عمرو بن عدي بن نصر بن ربيعة اللخم
مقتل خاله جذيمة، وينتقم له من قاتلته الزباء، بحيلة يحتا
ير، وتشير الروايات إلى أن الزّبّاء تنتحر بامتصاص السم
مها قبل أن يدركها عمرو بن عديّ فيقتلها.

•تعليقات على القصّة:

اختلفت المصادر في رواية هذه القصّة، بدءا باسم البطل
ماها بعضهم الزّباء وبعضهم الزَّبَّا (الزّبّى)وبعض سمّاها ا
ء، وقال قوم اسمها نائلة وقيل اسمها فارعة...
ذكرت مصادر أخرى أن جذيمة هو من خطب الزبّاء وطل
ج منها.
هناك روايات أخرى أثرُ الزيادة فيها واضح، والخيال فيها بع
ولهم إن الزّباء كان يحيط بها حين دخل عليها جذيمة أل
يفة، لا تشابُه بَيْنَهنّ، كما تكثر الزخارف اللفظية والمعنوية
ها، مما لم يكن معروفا عن الجاهليّين.
من اللّافت أيضا كثرة الأشعار البديعة والسليمة الواردة
ّة، وكثرة الأمثال، وهو شأن كثير من قصص العرب.

– يذكر شوقي ضيف أن قصّة الزّبّاء هذه لا تتّفق مع ما جاء
ائق التاريخ الرّومانيّ الصّحيحة، فإن اسمها فيه هو زنوب
zenobia) بدلا من الزباء، ولعل اسمها تعرّض للتّحريف
عريب، مثل كثير من الأعلام الأعجمية التي ترد في قصص العر
ل ملوك الفرس وغيرهم، كالذي كان يرويه النضر بن الحارث عن
نَ النّبيّ صلّى الله عليه وسلم.
– لم تخلُ قصّة الزباء من بعض المعتقدات العربية الجاهلي
عتقادهم أن دم الملوك يشفي من الكَلَبِ، وأنّ الجن بإمكان
تطاف البشر كما حصل لعمرو بن عدي في صباه، وأن الكهّ
كانهم استشراف المستقبل، وقد روي في قصة الزباء أن بعض
أ بالطريقة التي ينتهي بها ملكها...

سجْعُ الكُهَّـــــــان:

شاعت في أوساط عرب الجاهليّة الكَهانة، وهي ادّعاءٌ بمعر
غيب، كالإخبار بما سيقع في المستقبل للأمم والأفراد والأُس
لقبائل، وكان العرب يقدّسون الكاهن ويعظّمونه، وكثيرا
صدّقون ما يقوله على أنّه إلهام ووحي من قوى خفيّة.

قال ابن منظور: " الكاهِنُ الَّذِي يَتعاطي الخبرَ عَنِ الْكَائِنَا
ي مُسْتَقْبَلِ الزَّمَانِ ويدَّعي مَعْرِفَةَ الأَسرار، وَقَدْ كَانَ فِي الْعَرَبِ كَ
ـ: شِقٍّ(أنمار) وَسَطِيح (الذئبي)وَغَيْرِهِمَا، فَمِنْهُمْ مَنْ كَانَ يَزْعُم
هُ تَابِعًا مِنَ الْجِنِّ ورَئِيّاً يُلقي إِليه الأَخبار..."، وقد بَطُلَ ع
كهانة بمجيء الإسلام، وبعثة النبي الذي حرّم إتيان الكهّ
صديق أقوالهم.

الأمْثَـــــالُ العَرَبِيَّة

المَثَل في اللّغة:

ابن فارس: " الْمِيمُ وَالثَّاءُ وَاللَّامُ أَصْلٌ صَحِيحٌ يَدُلُّ عَلَى مُنَاظَرَةِ الشَ
ءٍ. وَهَذَا مِثْلُ هَذَا، أَيْ نَظِيرُهُ، وَالْمِثْلُ وَالْمِثَالُ فِي مَعْنًى وَاحِدٍ. وَرُبَّمَا
كَشَبِيهٍ... وَالْمَثَلُ: الْمِثْلُ أَيْضًا، كَشَبَهٍ وَشِبْهٍ.."(مقاييس اللغة، (مثل)

المَثَلُ في الاصطلاح:

خوذ من معنى التَّشبيه والمماثلة "لِأَنَّهُ يُذْكَرُ مُوَرَّى بِهِ عَنْ مِثْلِهِ فِي الْمَعْ
(مثل)، " وللناس في تعريفه عبارات. فقيل... إنّه القول السّائر المُ
رِبُه بِمَوْرِدِه؛ وقيل: هو قول مُركّبٌ مَشهور شُبِّهَ مَضْرِبُه بِمَوْرِدِه"(زهر الأكم في
الحسن بن مسعود بن محمد، أبو علي، نور الدين اليوسي (المتوفى: ١١٠٢هـ)، تح: محمد حجي، محمد الأخضر، الشركة الجديدة – دار الثقافة، الدار ال
ط١، ١٤٠١ هـ – ١٩٨١م، ج١، ص٢٠).

" وعرّفه المرزوقيّ بقوله: المثل جملة من القول مقتضبة من أصلها أو مُرسَلِها بالقَبول وتَشْتَهر بالتّداول، فتنتقل عمّا وردت فيه إلى كل ما يصحّ قصده بها بغَيُّر يلحقها في لفظها" (نور الدين اليوسي: زهر الأكم في الأمثال والحكم، ج١، ص ص ٢٠، ٢١).

خَصائص المثَل وسِمَاتُه

١- الأمثال –عادةً- مجهولة القائل، وقد تُحرَف قصّتها

٢- الاشتهار والقَبول والتّداول

٣- الثبات على صيغته الأولى، لأنّ طريقة الحكاية

٤- ارتباطه ضرورةً بقصّة أو حادثة هي مَوْرِدُه

٥- يُضرَبُ في حادثة مشابهة للمورد، هي المَضرِب

الإيجاز والاقتضاب

أهمّيّة الأمثال في العربيّة

مثل في العربيّة أهمّية كبرى، لما اشتمل عليه من البلاغة وحسن الصي
زاله المعاني الكثيرة في اللفظ القليل، يقول "أبو هلال العسكري"
هرة الأمثال):

وَلما عرفت الْعَرَب أَن الْأَمْثَال تتصرّف فِي أَكثر وُجُوه الْكَلَام، وَتدْخل
ساليب القَوْل، أخرجوها فِي أقواها من الْأَلْفَاظ، ليخفّ اسْتِعْمَالهَا، ويس
ها، فَهِيَ من أجلّ الْكَلَام وأنْبَلِه... لقلّة ألفاظها وَكَثْرَة مَعَانِيهَا، ويسير م
الْمُتَكَلّم مَعَ كَبِير عنايتها وجسيم عائدتها..."

ثمَّ إِنِّي مَا رَأَيْت حَاجَة الشريف إِلَى شَيْء من أدب اللِّسَان –بعد سَ
للّحن– كحاجته إِلَى الشَّاهِد والمثل، والشذرة والكلمة السائرة فَإِن
الْمنطق تفخيما ويكسبه قبولاً..." (العسكري: جمهرة الأمثال، ج١، ص ص.٠٤، ٠٥)

رواية الأمثال العربيّة وتدوينها

ا لاحتفاء العرب بالبلاغة والإيجاز، فقد اعتنوا بحفظ أمثالهم ور
نها، " فقد رُوي المثل العربي بلفظه، وحُفظ بصيغته،... كما أن المثل
للغات الساميّة، والعربية منها... وندر فيما سواها" ثم إن "الأمة ا
بكثرة الأمثال السائرة منذ القديم" (فصيح مقران: المدخل الجامع في أصول نظرية النحو العربي، ص١٧٨)

أمّا زمن تدوين المثل، وجمعه في كتب، فهو زمن حركة التدوين، يقول
: " وقد سارع العرب إلى تدوينها منذ أواسط القرن الأول للهجرة، إذ ألف
ر العَبْدي... فى أيام معاوية... (٤١ – ٦٠ هـ)...كما ألّف فيها عَبيد بن
ره كتابا، ويقول صاحب (الفهرست) إنه رآه فى نحو خمسين ورقة، وإذا
لقرن الثاني وجدنا التأليف فى الأمثال يكثر، إذ أخذ علماء الكوفة وال
يهتمّون بها ويؤلّفون فيها، وقد وصلنا عن هذا القرن كتاب أمثال ا
سل الضبى... وما تزال المؤلفات فى الأمثال تتوالى، حتى يؤلف أبو
كريّ(ت٣٩٥هـ) كتابه جمهرة الأمثال..." (تاريخ الأدب، العصر الجاهلي، ص٤٠٤)

أشهر كتب الأمثال

- كتاب الأمثال: مؤَرَّج السَّدوسي (ت١٩٥هـ)
- كتاب أمثال العَرب: المُفضَّل الضّبّي(ت١٦٨هـ)
- كتاب الأمثال: أبو عُبَيد القاسم بن سلّام(ت٢٢٤هـ)، شرحه أبو عُبَيد
كريّ(ت٤٨٧هـ) بكتاب سمّاه: (فصل المقال في شرح كتاب الأمثال
- كتاب الأمثال المُولَّدة: محمد بن العبّاس الخوارزمي(ت٣٨٣هـ)
- كتاب جمهرة الأمثال: أبو هلال العسكري(ت٣٩٥هـ)
- كتاب مجمع الأمثال: الميداني أبو الفضل أحمد بن محمد(ت٥١٨هـ
- كتاب المُستقصى في أمثال العرب: الزّمخشري(ت٥٣٨هـ)
- كتاب زهر الأَكَم في الأمثال والحِكم: نورالدّين اليُوسي(ت١١٠٢هـ)